نظرة فلسفية للتواصل الفكري
بين الأندلس الإسلامية وأوربا الغربية.

د يوسف موسى على عبدالله ابوعليقة [1].

ملخص

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه . . . وبعد . . .

لقد حاول ويحاول الكثيرون من كتاب الغرب أن يثبتوا أن الحضارة اليونانية ، نبعت من المحيط اليوناني وإنها لم تأخذ من أحد ولم تتأثر بأية حضارة معاصرة أو سابقة لها . ثم يحاول هؤلاء ربط المرحلة الإغريقية بمرحلة العالم الغربي التي تبتدئ بظاهرة تسمى عصر النهضة متناسين حضارة الإسلام ، أو إن ذكروها فهي عندهم ليست أكثر من الوسيلة التي انتقلت بها حضارة اليونان إلى غرب أوربا . ولذلك يدّعون بأن أوربا لا تدين في حضارتها إلى حضارة أخرى، متناسيين إن الازدهار الذي نجده في مختلف الميادين إنما هو محصلة حضارات متعاقبة على مر العصور وإعمال أمم تعاقبت في البحث عن حقائق الأمور ودراسة علومها جيلاً بعد جيل. وهذا يدل على إن شعوبا عدة تعاقبت على إرساء حضارة الإنسان، قد تناوبت العمل والابتكار على مسرح التاريخ؛ ولا يمكن لأمة إن تدعي أنها صاحبته وتجرد غيرها منه. وبهذا نخلص إلى القول : بان الحضارة متعددة الأصول مختلفة المصادر ، وهي نتاج تعاويني لكثير من الشعوب والطبقات والأديان ، وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو عقيدة .فالحضارة العربية الإسلامية هي جزء حي في كتلة الحضارة العالمية التي أثرت فيها وتأثرت بها ، فقد امتدت دولة الإسلام من حدود الصين الى جنوب فرنسا ، ورافق حركة الفتوحات الإسلامية استفادة العرب من فلسفة اليونان ، ومن ثقافة الصين والهند ، مع ما عندهم في ملامح فكرية عربية أصيلة فهضموا هذه الحضارات المختلفة وتولوها بالرعاية والبحث والتصحيح والتهذيب ، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم ، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها ، وتميزت بملامح جديدة ، والحضارة العربية الإسلامية لا ينقصها أو يقلل من أهميتها أمر تأثرها واستفادتها من الحضارات والثقافات التي سبقتها ، بل على العكس فهو عامل قوة لها ، وهو أمر طبيعي ان تقتبس كل امة من معارف وعلوم الأمم الأخرى التي سبقتها ، ولكن يكفي الحضارة العربية الإسلامية فخراً بأنها لم تكن مقلدة أو تابعة للحضارات التي سبقتها ، بل ان رجال هذه الحضارة بحثوا واجتهدوا وابتكروا ، متخذين ركائز دينهم الذي يدعوا إلى طلب العلم ، مع جذورهم الفكرية الأصلية ، فأضافوا واوجدوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري إلى الأمام. من هنا تكمن مشكلة البحث في الإشارة إلى معابر الفكر الإسلامي إلى أوربا ، وتوضيح التأثير الفكري والعقائدي للعلماء

[1] د يوسف موسى على عبدالله ابوعليقة، رئيس قسم الفلسفة، بجامعة،غريان، كلية الآداب والعلوم: EMIL: YMA2818@YAHOO.COM

والفلاسفة العرب المسلمين في مفكر الغرب المسيحي الذين ترجموا جل العلوم العربية إلى اللغات الأجنبية ؛ مما أحداث حركة فكرية منظمة عرفت بحركة الترجمة كان لها الأثر في إطلاع مفكري الغرب المسيحي على آراء و فلسفات و مذاهب و اتجاهات لم تكن لهم بها علم من قبل .

حيث تمكن أهمية البحث في:

1- التأكيد على إن الحضارات تبنى بالتراكم وهي أيضا حلقات متتالية منذ فجر الإنسانية وتأثير وتأثر بين ثقافات الأمم.

2- توضيح أثر العرب المسلمين في الفكر الفلسفي الأوربي عندما ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوربية الحديثة الناشئة .

3- بيان دور الترجمة في تحديد هوية الحضارة العربية الإسلامية، وتأثيرها في أوروبا؛ حيث كانت تترجم العلوم من اللغة العربية الى اللغات الأوربية مباشرة.

أهداف البحث :

حيث تمكن أهداف البحث في ما يلي:-

1- التأكيد على إن الحضارة العربية الإسلامية قامت بدورها الطليعي خير القيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الأغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدّم عليهم في التاريخ، نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة.

2- التأكيد على إن الحضارة العربية الإسلامية لا ينقصها أو يقلل من أهميتها أمر تأثرها واستفادتها من الحضارات والثقافات التي سبقتها ، بل على العكس فهو عامل قوة لها ، وهو أمر طبيعي ان تقتبس كل امة من معارف وعلوم الأمم الأخرى التي سبقتها.

3- توضح لإخواننا الباحثين إن الحضارة العربية الإسلامية يكفيها فخراً بأنها لم تكن مقلدة أو تابعة للحضارات التي سبقتها ، بل أن رجال هذه الحضارة بحثوا واجتهدوا وابتكروا ، متخذين ركائز دينهم الذي يدعوا إلى طلب العلم ، مع جذورهم الفكرية الأصلية ، فأضافوا واوجدوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري إلى الأمام.

4- التأكيد على إن أثّر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية، جلي وواضح يؤيد قولنا هذا مثلاً: ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل "داروين" بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" بأربعة قرون، ..الخ.

المنهج :

أما المنهج المستخدم فهو المنهج التاريخي الذي يعتمد على الوثائق ونقدها وتحديد الحقائق التاريخية ثم يحاول الباحث بعد مرحلة التحليل هذه ومرحلة أخرى هي التركيب حيث يتم التأليف بين هذه الحقائق و تفسيرها وذلك من اجل فهم الماضي ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الإحداث و التطورات الماضية.

مقدمة:

لقد قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها الطليعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الأغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدّم عليهم في التاريخ، نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة، وأثّر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية، وكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالباً وواضحاً ومؤثّراً في عديد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل "داروين" بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" بأربعة قرون، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل "نيوتن" بقرون متطاولة، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الأجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالي البحار، ووضع أسس علم الكيمياء.

ويمكن القول إجمالاً إن الثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية ؛ فالفكر العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متّصلة الحلقات، امتدّت من الحضارات القديمة من مصرية وآشورية وبابلية وصينية، إلى حضارة الأغريق والاسكندرية، إلى العصر الإسلامي الذي تأثّر علماؤه بمن تقدّمهم، وأثّروا بدورهم فيمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين قرؤوا أعمال العلماء العرب في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية .

لقد حافظت الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية من الضياع، إذ لولا المثقفون والعلماء العرب، لما وصلت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية. ولقد ظلّ الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد أن تقلّص ظلّها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة. وظلت الثقافة العربية الإسلامية تستهوي الكثيرين من أبناء العالم الغربي، إذ لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد عندما بدأت الكتب اليونانية تُنقل رأساً إلى اللاتينية من دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتُها وشخصيتها، فقد أنتجت الكثير مما لم تستطع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كافّة : إضافات وتعليقات

وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان. إن حركة النقل من الثقافة العربية الإسلامية التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على نقل المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية، من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب. إن أوروبا المسيحية قد نقلت أيضاً معارف عربية خالصة، كما نقلت أنماطاً من الحضارة الإسلامية ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصّة.

الأندلس حاضرة أوربا:

دام حكم العرب المسلمين للأندلس ما يقارب الثمانية قرون (92 - 197 هـ /710- 1492م) أعطى خلالها الإسلام الذي كان قد خلق توافقاً واندماجاً بين حضارتين متضادتين باستناده على فكره الكوني ، وصفة التسامح لمفهومه الديني ، وباعتماده على قدراته الهائلة في التمثيل والإبداع ، وميله المتميز إلى التجريب والاختبار ، ثماراً عظيمة في بلاد الأندلس التي شهدت أهم اندماج عرقي بين الشرق والغرب ، وكانت الحضارة يومها تشع من حواضر الأندلس ، من قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية وسرقسطة .... الخ ، وكانت قرطبة في عصر الخلافة الأموية (316 – 422 هـ / 928 - 1030م) عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت والأكثر تحضراً في أوربا كما يشير المؤرخ المشهور (رامون منندث بيدال) [2].

فقد انتشر التعليم في الأندلس انتشاراً عظيماً وظهر العلماء والعباقرة في كل ميدان ، وكثرت المدارس والجامعات وزاد الوعي الثقافي ، حتى ليروى انه كان في الأندلس أيام الخليفة الحكم المستنصر (350 – 366 هـ /960-976م) سبعون مكتبة عامة تحوي مئات الآلاف من الكتب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية ، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة ، هذا فضلاً عن مكتبة قرطبة المركزية.

وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في العام 422 هـ/ 1030م ، عمت حالة الضعف والتجزئة والانقسام السياسي بقيام دويلات الطوائف ، إلا ان هذا الأمر لم يؤثر سلباً على النشاط العلمي ، بل على العكس

[2] مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في اوربا عبر الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس،(بيروت،دار الرشاد،1969) تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي (ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999): 1478/2، وقارن: عبد الرحمن علي الحجي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ص22-24.

كانت له أثاره الايجابية النابعة من موقف العديد من ملوك الطوائف الذين تميزوا بحبهم للعلم والعلماء ، وهذا ما دفعهم إلى التنافس فيما بينهم في رعاية وتنشيط الحركة العلمية واستقطاب العلماء ، وإغداق العطايا عليهم ، حتى غدت بلاطاتهم الملكية عبارة عن منتديات علمية وأدبية ، وكان على رأسهم ملك دولة بني عباد ، المعتمد بن عباد.

وبعد زوال حكم دويلات الطوائف سنة 483 هـ/ 1090 م ، وسيطرة دولة المرابطين ، ومن بعدهم الموحدين سنة 541هـ/1146م على الأندلس لم تتأثر الحركة العلمية بتلك التقلبات السياسية ، بل ازدادت سعة ونشاطاً ، لاسيما في عصر الدولة الموحديه الذي اتسم بحرية الفكر ، حيث وجه حكام هذه الدولة اهتماماً كبيراً للعلم والثقافة ، فقد كانوا من محبي أهل العلم مقدرين مكانتهم ، وحريصين على جمعهم في بلاطاتهم ، وإكرامهم ، ولا عجب من ذلك فقد كان البعض من هؤلاء الحكام ، علماء كما وصفتهم كتب التاريخ والتراجم ، كعبد المؤمن بن علي الذي قيل فيه انه كان " عالماً بالجدل فقيهاً في علم الأصول ... مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية ، إماماً في النحو واللغة ...."[3] .

وأبو يعقوب يوسف الذي وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله"كان ذا إيثار للعلم شديد التعطش إليه مفرط ... وكان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو ... ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ... وبدأ من ذلك بعلم الطب ... ثم تخطى ذلك إلى ما هو اشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي" [4].

وفي ظل هذا الجو نشطت الحركة العلمية في جميع فروع العلوم النقلية منها والعقلية، وبرز خلال هذا العصر عدد من العلماء ، ذاع صيتهم في أوربا، وما زال إلى الوقت الحاضر، كابن طفيل ، وابن رشد، وابن البيطار .... الخ .

وبعد ان دبّ الضعف في دولة الموحدين في الأندلس لاسيما بعد خسارتها في معركة العقاب سنة 609 هـ/ 1212 م أمام مملكة قشتالة ، التي عدت بداية النهاية لحكم الموحدين في الأندلس ، الذي انتهى سنة 635

[3] الحجي، عبد الرحمن، 1969م، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، بيروت، دار ا الرشاد،ص27-28.
[4] ابن ابي زرع1972،م، الانيس المطرب بروض القرطاس (الرباط، دار المنصور للطباعة،). ص203

هـ /1237م ، بعد خسارة وسقوط الكثير من حواضر الأندلس بيد الممالك الاسبانية الشمالية ، وانحسار الحكم العربي الإسلامي ، وحصره في الجزء الجنوبي الشرقي في ظل حكم دولة بني الأحمر التي قامت على أنقاض دولة الموحدين (635 -897 هـ / 1237-1491م) واتخذت من غرناطة عاصمة لها ، حيث نشطت الحركة العلمية في غرناطة ، ومدن أخرى كمالقة والمرية ، بسبب هجرة العديد من علماء المعاهد العلمية التي كانت منتشرة في المدن الساقطة بيد الاسبان ، هذا فضلاً عن رعاية حكام بني الأحمر للعلم والعلماء ، فقد كان الطب والرياضيات والفلك من العلوم الأساسية التي كانت تدرس في الجامع الأعظم في غرناطة ، وفي مدارس المدن الأخرى [5].

وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الأسبان المعايشين للعرب ، ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن ، وكانت هناك ازدواجية لغوية عربية ورومانية بين عامة الشعب الأندلسي ، وأصبحت العربية الفصحى لغة الثقافة للاسبانيين ، والى جانبها اللاتينية الفصحى ، وكان مجال استعمالها ضيقاً. وبقيت اللغة العربية الاسبانية حتى القرن السادس عشر الميلادي في اسبانيا[6]. أي بعد إنهاء الحكم العربي الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492م. وشيئاً فشيئاً ومن خلال الاحتكاك والتعايش بين مختلف شرائح المجتمع الأندلسي*[7] ، طيلة حكم ثمانية قرون ، وفرّ للأسبان وغيرهم سبل الأخذ عن المسلمين ، بشكل مباشر وغير مباشر[8]. وتحقق من بلاد الأندلس تواصل حضاري بين العالمين المتصارعين ، ذلك التواصل الذي شمل أوربا برمتها [9].

[5] عبد الواحد المراكشي،1978م، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب،) ص347.

[6] محمد العربي الخطابي، 1988م، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية (بيروت، دار العرب الاسلامي): 29/1.

[7] كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر و اجناس مختلفة، مسلمة ، ضمت العرب الفاتحين، والمسالمة او الأسالمة وهم الأسبان الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح، والمولدين من أبناء الأسالمة وهم الأسبان الذين ولدوا من أباء عرب مسلمين وأمهات اسبانيات، وقد ازداد هؤلاء عددهم بالتدريج حتى أصبحوا يكونون معظم سكان الأندلس. وغير مسلمة من أصحاب الديانات الأخرى النصارى- اليهود- عاشوا جميعهم في مجتمع يضلله التسامح التام-والاعتبار فيه للكفأة والمؤهلات ولذلك ظهرت في أصحاب هاتين الديانتين مفكرون وعلماء وسفراء، ونشأت طبقة من نصارى الأندلس تسمى بـ(المستعربين) احتفظوا بديانتهم النصرانية، وتعلموا اللغة العربية وتثقفوا بالثقافة الإسلامية.

[8] .محمود الجليلي،1981م، تأثير الطب العربي في الطب الأوربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 32، الجزء 3 ، 4،ص188. وينظر محمود الحاج قاسم1998م، انتقال الطب العربي الى الغرب، الموصل: العراق، ص23 -24.

[9] محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي الى الغرب، ص26.

عدت الأندلس أهم احد المعابر التي تمت خلالها عملية الإخصاب بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الأوربي ، فهي نقطة التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوربية الناشئة ، لأنها تقع على الحدود بين بلاد الإسلام وبلاد أوربا ،لذا كانت طرق التواصل بين الأندلس وأوربا سهلة ، وتمثلت بصور وأشكال متعددة ، مباشرة وغير مباشرة .

طرق التواصل الفكري بين الأندلس وأوربا هي:

أولاً :البعثات الأوربية.

ثانياً : خزائن المدونات في أديرة اسبانيا.

ثالثاً : المستعربون.

رابعاً : التجار والعلاقات التجارية المتواصلة .

خامساً : التقارب السياسي والعلاقات الدبلوماسية .

أولاً – البعثات الأوربية الشخصية والرسمية التي توافدت على مراكز الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ، فقد حمل العرب المسلمون طيلة فترة مكوثهم في اسبانيا مشعل العلم والحضارة ، واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوربا على قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة .. حيث كان الطلاب يشدون الرحال إليها ويقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع ، والاطلاع على مؤلفات العرب فيها ، وكان في مقدمة هؤلاء الراهب الفرنسي (جربرت دي اورياك) الذي وفد إلى الأندلس في عصر الخليفة الحكم المستنصر (350-366 هـ / 961 – 976م) ، ودرس على أيدي العلماء المسلمين الرياضيات والفلك والكيمياء ، وحينما عاد إلى وطنه بعد ان بلغ من العلم مبلغا خيّل لعامة فرنسا إذ ذاك انه ساحر[10]. فقد من أوائل المهتمين بالثقافة العربية ، والمضمون التجريبي

[10] جلال مظهر،1974م، حضارة الإسلام واثرها في الترقي العالمي ،القاهرة، مكتبة الخانجي.ص497، جوزيف رينو، تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق: شكيب ارسلان (بيروت، 1966)، ص296.

للعلم ، وقد تمكن فيما بعد بفضل مواهبه العقلية ان يتربع عرش البابوية في روما تحت اسم سيلفستر الثاني (390 – 394 هـ / 999 – 1003 م) وكان له الدور البارز في نشر علوم العرب في أوربا وهو أول من ادخل التعليم الدنيوي ودافع عنه على أسس تقدمية[11].

كما وجدت نسخة لاتينية من حكم ابقراط كانت تستخدم في التدريس في مدينة شارتر بفرنسا عام 382 هـ / 991 م فعللت هذه الظاهرة بوجود نفوذ عربي مبكر في فرنسا ، لان هذه النسخة كانت عن أصل عربي ، ذلك لان الغرب اللاتيني كان يجهل في هذا العصر جهلاً تاماً أي شيء من الأصول اليونانية لأعمال اليونان القدماء[12].

وقد استنتج من قبل بعض المؤرخين المحدثين افتراضا من ظروف هرمان الكسيح (1013-1054م) وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري ، وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية الأندلسية ، فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الأندلس ، إلا انه استفاد من ترجمات لأعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت ، واستفاد ثانياً من الطلاب الأوربيين العائدين من الأندلس إلى أوطانهم ، بعد ان انهوا دراستهم في الجامعات العربية ، والذين كانوا يمرون بدير(ريختاو) الذي يقيم به هرمان ويقضون فيه فترة قبل رجوعهم إلى بلادهم ، وعن هؤلاء نقل هرمان كل ما جلبوه من الآلات الفلكية العربية وفي مقدمتها الإسطرلاب [13].

كما أرسلت إلى الأندلس بعثات ذات طابع رسمي من قبل حكومات بعض الدول الأوربية ، وأخذت هذه البعثات تتوالى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى ، حتى بلغت سنة 312 هـ / 924 م ، في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة[14] .

[11] خليل ابراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (بنغازي، دار المدار الاسلامي، 2004) ص477، عبد الرحمن الحجي، الحضارة الاسلامية في الاندلس، ص49 50، جلال مظهر، حضارة الاسلام، ص497.

[12] المرجع نفسه، ص501، 502.

[13] زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي (بيروت، منشورات المكتب التجاري، د.ت)، ص140، خليل السامرائي واخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ص477.

[14] المرجع نفسه، ص477.

وكانت إحدى هذه البعثات من ألمانيا ، ففي سنة 313 هـ / 925 م أرسل ملك ألمانيا اوتو الكبير ، الراهب (جون) إلى قرطبة مبعوثاً إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وأثناء مكوثه فيها لمدة ثلاث سنوات تعلم العلوم والثقافة العربية ، وحمل معه المخطوطات العلمية العربية [15].

وتوجهت بعثه من فرنسا برئاسة الأميرة (إليزابيث) ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا. وبعث فيليب ملك بافاريا إلى الخليفة هشام المؤيد (366 – 399 هـ /976-1009 م) بكتاب يطلب منه ان يأذن له بإرسال بعثة من بلاده إلى الأندلس للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها ، فوافق الخليفة هشام ، وجاءت بعثة هذه الملك برئاسة وزيره المدعو (ويلميين) الذي يسميه العرب وليم الأمين [16].

وقد تألفت هذه البعثة من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس لينهلوا من مواردها الثقافية ، وتذكر الروايات بان ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي ومكثوا في الأندلس ورفضوا العودة إلى بلادهم ، ومن ضمن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت ، وأنجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي [17].

وسار ملوك آخرون من أوربا على هذا النهج ، فقد أوفد ملك ويلز بعثة برئاسة ابنة اخيه كانت تضم ثمانية عشرة فتاة من بنات الأشراف والأعيان ، وقد وصلت هذه البعثة مدينة اشبيلية برفقة النبيل (سفيلك) رئيس موظفي القصر في ويلز الذي حمل رسالة من ملكه إلى الخليفة هشام المعتد بالله الذي خلع عام 422 هـ/ 1030م وكان هدف هذه البعثة كما تقول الرسالة:"فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا ولأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان ..."[18].

[15] محمود الحاج قاسم، انتقال الطب العربي إلى الغرب، ص27.

[16] السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس،مرجع سابق، 477، 478.

[17] سليم طه التكريتي "أوربا ترسل بعثاتها إلى الأندلس"، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 37 (الكويت: 1968)، ص90 وما بعدها (نقلاً عن السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، 477، 478.)

[18] المرجع نفسه.

وقد استقبل خليفة الأندلس البعثة أحسن استقبال ، ورد على رسالة ملك ويلز ، وقد حظيت هذه البعثة باهتمام رجال الدولة الذين قرروا ان يتم الإنفاق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين [19].

وفي الوقت نفسه قام بعض ملوك أوربا باستقدام علماء الأندلس لتأسيس المدارس ونشر ألوية العلم والعمران ، ففي خلال القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي وما بعده وّقعت حكومات هولندة وسكسونيا وانكلترا على عقود مع حوالي تسعين من الأساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم ، وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الاسبانية واللاتينية إلى جانب اللغة العربية [20].

ووقعت تلك الحكومات عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات ولاسيما إنشاء السفن، وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون الزراعة . ولقد قام بعض المهندسين العرب اكبر جسر على نهر التايمس في انكلترا عرف باسم (جسر هليشم Helichem) وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الانكليز اسمه على هذا الجسر عرفاناً بفضله لأنه أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب. وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا ،ولا تزال توجد بإحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (أميديو Amedeo) وهو تحريف لكلمة احمد المهندس العربي الذي بناها [21].

ثانياً : خزائن المدونات في أديرة اسبانيا ، ولاسيما دير سانتا ماريا دي ريبول الذي اقتنى بين القرنين السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي أعداداً كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي انحدر العديد منهم من أصل مستعرب [22] .

ثالثاً : المستعربون : وهم الفرنجة أو اللاتين الذين كانوا يمثلون عنصراً فعالاً في الحياة الأندلسية ، وكان لهم الفضل في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى اسبانيا ومن جاورها ؛ أي الذين تعلموا العربية باعتبارها لغة الفاتحين،و أشهرهم الراهب جيلبرت الذي اعتلى فيما بعد عرش البابوية في روما سنة 999 ،باسم سلفستر الثاني،

[19] خليل ابراهيم السامرائي،1986م، دراسات في تاريخ الفكر العربي ،الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر،ص386- 387.
[20] المرجع نفسه، ص387.
[21] المرجع نفسه، ص387، وينظر: عبد الرحمن الحجي، الحضارة الإسلامية في الأندلس،مرجع سابق، ص58.
[22] مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية في الأندلس،مرجع سابق: 1487/2.

الذي يعد أهم و أشهر المتأثرين بالعلوم العربية،حيث وفد إلى قرطبة في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر للتزود بالعلم.

بل الى جانب سلفستر، وفدت ايضا على منطقة ابرو الإسبانية في الشمال مجموعة من طلاب العلم من مدرسة شارتر Chartre بفرنسة وقاموا بنشاط ملحوظ في ترجمة الكتب العربية. وما لبث دير سانتا ماريا دو ريبول S.M.de Ripoll في مقاطعة كاتالونيا الإسبانية أن أصبح مركزاً هاماً لحركة نقل العلوم العربية وخاصة في الفلك والحساب والزراعة.كذلك كان بلاتو التيفولي Plato de Tivoli الذي عاش في القرن الثاني عشر من أقدم النقلة الذين كان لهم كما يقول الدكتور محمد السويسي فضل تعريف الغرب بالعلوم اليونانية . العربية مثل كتاب الهندسة التطبيقية. وهو ناقل رسالة الفلك للبتاني [23]

ونشرت في نورمبرغ سنة 1237. ومعظم ترجماته أنجزها في برشلونة، وكان يؤرخها بالتقويم الهجري.[24] ،على أن واسطة عقد المترجمين على الإطلاق كان جيرار القرموني ، وكان على رأس فريق ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً ترجمة حسنة منها ملخص لكتاب الخوارزمي الموجود في أكسفورد.

ومن أبرز المترجمين أبو الوفاء الذي ترجم كتاب المجسطي ، وقد نشرت الترجمة في البندقية سنة 1515، وكتاب جابر بن أفلح الإشبيلي في إصلاح المجسطي الذي نشر في نورمبورغ سنة 1537، ومن هذه المترجمات زيج الزرقالي، وتوجد عدة نسخ منه مكتوبة باللاتينية. ومن هؤلاء غوندي سلفو وهوغو سانتا ليسنسيس وبلاتو تيبرتينوس وروبيرتو كاتينانسيس. [25]

ويمكن القول في ضوء ما تقدم أن الأندلس وما جاورها من البلدان ازدهرت ازدهاراً لم تشهد مثله تلك البلاد في القرون الوسطى، وكانت بذلك رافداً كبيراً لنظيرتها في المشرق العربي في إبان العصر العباسي، ثم في أعقاب الحروب الصليبية. وذلك كله ساهم إلى حد بعيد في بعث النهضة العلمية في أوروبا وإغناء الحضارة الإنسانية.

فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافي ولا العنصري بين المسلمين والنصارى حيث كانوا متعايشين سوية بروح التسامح، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال

[23] محمد السويسي، العلوم العربية بالأندلس ونقلها إلى أوروبا، بحث مخطوط ، الندوة العالمية للثقافة العربية الإسبانية، في دمشق. كانون الأول . ديسمبر . 1990. م، ص 12 . 13

[24] المرجع نفسه ص 12 . 13.

[25] المرجع نفسه ص 13 . 14.

بين شطري اسبانيا ، وهم منذ الفتح العربي الإسلامي لم ينقطعوا عن الهجرة إلى المناطق الشمالية في اسبانيا حيث إخوانهم النصارى ، وقد ازدادت هجرتهم في القرن السادس والسابع الهجري / الثاني عشر والثالث عشر الميلادي على عهد دولتي المرابطين والموحدين ، فقد هاجر سكان بلنسية منها إلى قشتالة في عام 496 هـ / 1102م ، وخرجت طائفة كبيرة من غرناطة مع جيش الفونسو الأول المحارب ملك ارغونة عام 519 هـ /1125م وكما خرجت طائفة أخرى من اشبيلية إلى قشتالة عام 541 هـ / 1146م وقد كان شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الثقافة الإسلامية العربية بين نصارى الشمال الاسباني [26] .

رابعاً : التجار والعلاقات التجارية المتواصلة ، فالتجار المسلمين الذين ظلوا قروناً يتاجرون مع الكثير من البلدان الأوربية،فلقد دلت الحفريات والتنقيبات أخيراً على وجود عملات إسلامية في أوربا الشمالية حتى فلندا [27] .

كما لا ننسى الرحالة المسلمون الذين طافوا في مختلف أنحاء العالم ومنها أوربا أثر في نشر الحضارة العربية الإسلامية، ثم فيما أنتجته رحلاتهم من تراث جغرافي أو كتابات تخص تلك الشعوب والأقطار التي زاروها، كرحلة ابن فضلان وأبو عبيد البكري [28].

خامساً : التقارب السياسي والعلاقات الدبلوماسية ، حيث سعت العديد من الدول الأوربية إلى توطيد العلاقات مع الدول العربية الإسلامية في الأندلس لاسيما في عصر الخلافة الأموية ، في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي اجتمعت في شخصه مواهب عدة أهلته لان يكون حاكماً ناجحاً ، فهو سياسي مرن وقائد شجاع وإداري صلب ، تمكن من خلق نظام قوي ومتين داخل الأندلس ، وتحقيق سمعة سياسية في الخارج ، أهلته لان يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة له والتي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه [29] . وكانت الدولة البيزنطية في مقدمة الدول الساعية إلى توطيد العلاقات مع الأندلس ، وقد عاصر الخليفة الناصر من أباطرة

[26] لطفي عبد البديع، الإسلام في اسبانيا، (القاهرة، 1961)، مرجع سابق ،ص30، 31،مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية:مرجع سابق، 1478/2.

[27] سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها على اوربا (القاهرة، 1963)، ص184، مارغريتا، إسهامات حضارية، الحضارة العربية: 1478/2.

[28] عبد الرحمن الحجي، الحضارة السلامية، مرجع سابق،ص33.

[29] إبراهيم بيضون، 1978م ، الدولة العربية في اسبانيا ،بيروت.ص307، السامرائي،وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس،مرجع سابق، ص174.

بيزنطة الإمبراطور قسطنطين السابع المشهور عنه اهتمامه بالعلوم والآداب وكتب الأقدمين ، وقد وصلت سفارتين من الدول البيزنطية إلى الأندلس كانت الأولى سنة 336 هـ/ 947م ، حيث بالغ الناصر في تزيين بلاطه والاحتفال بالسفراء[30] .

ورافقت هذه السفارة في طريق العودة بعثة من قبل الدول العربية في الأندلس كان على رأسها هشام بن هذيل يحمل جواباً من خليفته الناصر يؤكد على توثيق العلاقات بين البلدين ، وقد استغرقت سفارة ابن هذيل قرابة السنتين عاد بعدها إلى الأندلس [31] وقيل : انه عاد صحبة سفارة ثانية سنة 338 هـ/ 949م للإمبراطورية البيزنطية [32] استقبلت بمثل حفاوة ما استقبلت السفارة الأولى[33].

ومن نتائج هذه السفارات دخول المؤلفات المهمة إلى الأندلس ككتاب الحشائش في الطب والصيدلة لديسقوريدس وكتاب هروشيش في التاريخ الذي يحوي أخبار الروم في العصور القديمة ، وقد استعانت الخلافة الأندلسية بالدول البيزنطية من اجل ترجمة هذين الكتابين [34] ونقل اكثر من مائة سارية وتحف غريبة استخدمت في بناء وتزيين مدينة الزهراء [35] .

وحرصت الدولة الرومانية المقدسة على إقامة علاقات دبلوماسية مع الدولة العربية الإسلامية في الأندلس ، فقد وصلت سفارة من قبل الإمبراطور الألماني اوتو الكبير ، إلى الأندلس سنة 342 هـ / 953 م ، وكانت برئاسة الراهب جان دي جورز ، وهو احد علماء عصره في البحث والمناظرة [36] .

---

[30] ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنئر،1979): 142/4، المقري، نفح الطيب، تحق: احسان عباس (بيروت، 1968):364/1.

[31] ابن خلدون، العبر، المصدر نفسه: 142/4.

[32] المصدر نفسه: 143/4.

[33] ابن عذاري، 1980م ، البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال ،بيروت، دار الثقافة.: 215/2.

[34] احمد بدر،1974م ، تاريخ الاندلس، عصر الخلافة،دمشق،ص139، عبدالعزيز سالم،1972م، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس،بيروت، : 166/2.

[35] المقري، نفح الطيب:1 /566،مصدر سابق،وينظر السامرائي واخرون،تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس،مرجع سابق ص175 – 158.

[36] محمد عبد الله عنان، 1960م، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة: 457/2.

ولكن ممثل الإمبراطور لم يكن على قدر من السلوك الدبلوماسي ، فقد وصلت إلى مسامع الخليفة الناصر ان السفير يحمل رسالة تضم عبارات تمس مقدسات العقيدة فرفض مقابلته ، وتم الاتفاق على إرسال سفارة عربية إلى اوتو الكبير تطلب منه تغيير سفارته ، وأوكل هذه المهمة إلى احد المستعربين الذين يجيدون اللغة اللاتينية إجادة تامة ويدعى رثموندو أو ربيع بن زيد – إذ كان من عادة المستعربين اتخاذ الأسماء العربية إضافة إلى أسمائهم الأجنبية – وقد استقبلت هذه البعثة من الإمبراطور في بلاطه بمدينة فرانكفورت ، وأنهت مهمتها بنجاح وعادت إلى الأندلس برفقة سفارة ألمانية جديدة حملت توجيهات محددة إلى السفارة السابقة [37].

وتمكن السفير ربيع بن زيد (رثموندو) أثناء تواجده في ألمانيا ، من لقاء المؤرخ الألماني لوتيراند ، وحثه على وضع كتاب في التاريخ يهتم بإخبار وحوادث العصر [38] .كما كانت للمالك الاسبانية الشمالية علاقات دبلوماسية مع حكومة قرطبة على الرغم من أن الصراعات العسكرية هي التي كانت غالبة على العلاقة بين الطرفين ، إلا أن هذه الممالك كانت تدخل في وفاق عندما تكون عاجزة عن القيام بأي فعل عسكري تجاه الدولة العربية في الأندلس [39] .

وبل إلى جانب ذلك تعد الحروب التي كانت دائرة بين الطرفين لعبت دوراً في التلاقح الفكري ، من خلال الأسرى ، إذ ما لبث البعض من أسرى المسلمين من علماء وأطباء أن تحولوا للعمل في بلاط أمراء الأسبان ، وفي الجانب الأخر أيضاً وقع بعض أسرى الأوربيين بيد المسلمين ، وعندما فك أسرهم نقلوا ما سمعوه وشاهدوه من تقدم حضاري في الأندلس.

الخاتمة:

حكم العرب إسبانيا ما يقارب ثمانية قرون بلغت فيها الحضارة العربية الذروة، لذا كان تأثيرهم على أوربا كبيراً وذلك عن طريق طلاب العلم الذين وفدوا إليها للتعلم حيث يقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع

[37] المرجع نفسه:457/2.

[38] احمد بدر، تاريخ الاندلس،مرجع سابق ص142، وينظر: السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس،مرجع سابق ص176، 177.

[39] ابراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا، مرجع سابق ،ص312، مارغريتا، اسهامات حضارية، الحضارة العربية في الاندلس،مرجع سابق: 1478/2.

والاطلاع على كتب العرب فيها، فكانت البعثات الوربية تتوالى تترى على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى حتى بلغت سنة 312 هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة، ومنهم الراهب "جربرت الفرنسي" الذي رحل إلى قرطبة طلباً للمعرفة وقضى فيها ثلاث سنوات نهل من خلالها من العلوم العربية ثم عاد بعد ذلك ليتوّج بابا باسم "سلفستر الثاني" لذلك ساهم في نقل العلوم العربية إلى أوربا. وقد قام بالدور نفسه مطران مدينة طليطلة "ريموند" الذي عمل مع مجموعة من المطارنة على ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية بعد أن استرد الإسبان المدينة من العرب. وكان أول ما اهتم به هؤلاء المترجمون هو العلوم العربية المنقولة عن اليونانية وذلك ان أوربا كانت قد أقفرت أو كادت من العلوم وانحصرت بضاعتها العلمية في معلومات جافة وعقيمة وضعها مجموعة من رجال الدين.

النتائج:

1- أن معظم الكتابات الأوروبية أسقطت من تاريخها دورَ الحضارة الإسلامية؛ الذي كان أكبر من كونه مجرد همزة وصل بين الحضارة اليونانية والنهضة الغربية الحديثة؛ حيث استوعب المسلمون علوم من سبقوهم، ونقَّحوها، وأضافوا إليها الشيء الكثير.

2- إن التأثير العميق الذي خلَّفه المسلمون في الأندلس، سواء في الفكر والعقيدة، من خلال إقامة المكتبات والمدارس؛ أو الناحية المادية بتشييد الأبنية والمساجد (مسجد قرطبة) والقصور (قصر الحمراء) والحدائق، مازال شاهد صدق حتى الآن على عظمة هذه الحضارة وروعتها.

3- استطاع العرب والمسلمون أن يحولوا أسبانيا ماديًّا وثقافيًّا في بضعة قرورن، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية، فالعرب هم الذين نقلوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي .

4- استطاعت الحضارة الإسلامية أن تؤثر فيمن جاورها من الأمم وتأخذ بأيديهم على مدارج السلم الحضاري، وأن ترسل أشعة نورها وعمرانها إلى أوروبا .

5- مهَّد الحضارة الإسلامية لاوربا التعرف على العلوم التجريبية، التي على منوالها تأسيست نهضة الغرب في العصر الحديث؛ مما يؤكد أن الحضارة في جانبها المادي والعمراني سلسلةٌ متصلة الحلقات، ينبني اللاحقُ منها على السابق، وتسهم فيها كلُّ أمة وحضارة بنصيبها.

وأخيراً نؤكد على إنه رغم الإجحاف والإنكار الممنهج من بعض المستشرقين، فإن ثمة مستشرقين منصفين شهدوا بعظيم الدور الذي قامت به الحضاراة الإسلامية، وأكدوا أنه لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ، لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون.

المصادر و المراجع :

1. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا ،بيروت ، 1978م,
2. ابن ابي زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور للطباعة،1972 م.
3. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنثر،1979م,
4. ابن عذاري ، البيان المغرب، تحقيق: ج.س.كولان وليفي بروفنسال ،بيروت، دار الثقافة، 1980م.
5. احمد بدر ، تاريخ الاندلس، عصر الخلافة،دمشق،،1974م,
6. جلال مظهر، حضارة الإسلام واثرها في الترقي العالمي ،القاهرة، مكتبة الخانجي،1974م.
7. جوزيف رينو، تاريخ غزوات العرب، ترجمة وتعليق: شكيب ارسلان،بيروت، 1966 م.
8. الحجي، عبد الرحمن ، الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، بيروت، دار ا الرشاد ، 1969م,
9. خليل ابراهيم السامرائي ، دراسات في تاريخ الفكر العربي ،الموصل، دار الكتب للطباعة و النشر،1986م,
10. خليل ابراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بنغازي، دار المدار الاسلامي، 2004م,
11. زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي ،بيروت، منشورات المكتب التجاري، د.ت,,
12. سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الاسلامية وأثرها على اوربا ، القاهرة، 1963م.
13. سليم طه التكريتي "اوربا ترسل بعثاتها الى الاندلس"، مجلة الوعي الاسلامي ، العدد 37 ، الكويت: 1968,
14. عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي،ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978م.
15. عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس،بيروت ،1972م.
16. لطفي عبد البديع، الاسلام في اسبانيا، القاهرة، 1961م.
17. مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في اوربا عبر الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس، بيروت،دار الرشاد، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي ، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م.
18. محمد العربي الخطابي ، الطب والأطباء في الاندلس الاسلامية ، بيروت، دار العرب الاسلامي، 1988م.
19. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة ،، 1960م.
20. محمود الجليلي ، تأثير الطب العربي في الطب الاوربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 32، الجزء 3 ، 4، 1981م.
21. محمود الحاج قاسم ، انتقال الطب العربي الى الغرب، الموصل: العراق، 1998م.

22. المقري، نفح الطيب، تحقيق: احسان عباس ، بيروت، 1968م.